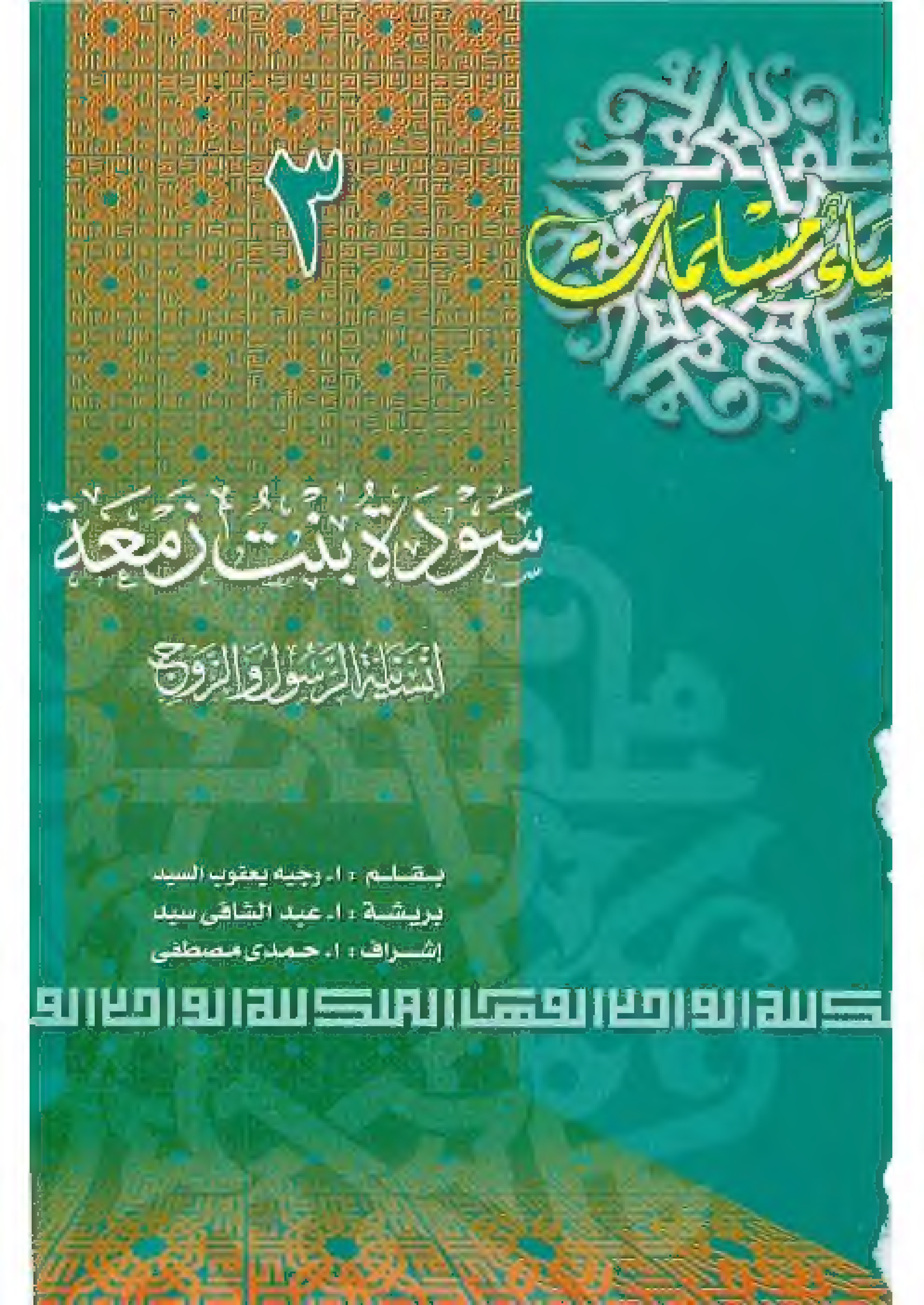

نساء مسلمات
٣
سودة بنت زمعة
أنسنية الرسول والزوج
بقلم : أ. وجيه يعقوب السيد
بريشة : أ. عبد الشافي سيد
إشراف : أ. حمدي مصطفى

تركتْ وفاةُ السيدةِ (خديجةَ بنتِ خُويلدٍ) فراغاً كبيراً في نَفْسِ الرسولِ ﷺ، فقدْ كانتْ نعمَ الأنيسُ، الذي يواسي النبيَّ ﷺ ويُخففُ عنه آلامَهُ ويشدُّ من أزْرِهِ.

وتساءلَ الصحابةُ بعدَ موتِ (خديجةَ):

- هل يبقَى الرسولُ ﷺ بلا زوجةٍ بعدَ وفاةِ أمِّ المؤمنينَ (خديجةَ بنتِ خويلدٍ)؟

وانطلقتْ (خولةُ بنتُ حكيمٍ السلميَّةُ) إلى رسولِ اللهِ ﷺ لتُفاتحَهُ في موضوعِ زواجِهِ. فقالتْ له في تلطُّفٍ ورفقٍ:

- يارسولَ اللهِ، كأنِّي أراكَ قدْ أصابتْكَ وحشةٌ لفقدِ (خديجةَ)!

فقالَ النبيُّ ﷺ في تأثرٍ:

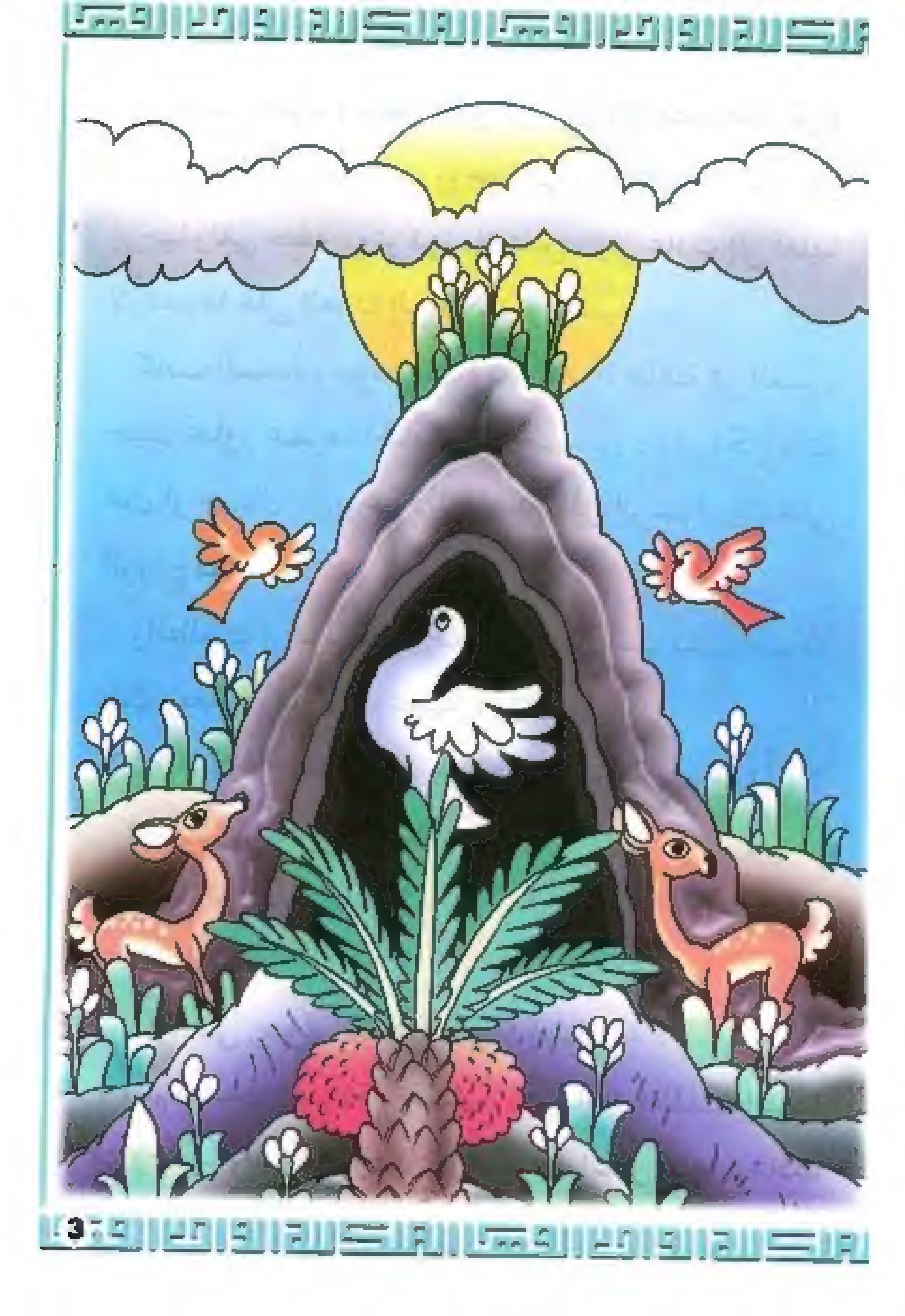
- أجلْ، كانتْ أمَّ العيالِ وربَّةَ البيتِ.

وانتهزتْ (خولةُ بنتُ حكيمٍ) الفرصةَ، وقالتْ:

- يا رسولَ اللهِ، أفلا أخْطُبُ لَكَ؟

وسألَها الرسولُ ﷺ عمَّنْ تقْصِدُها (خولةُ)، فقالتْ:

- يا رسولَ اللهِ، أخْطُبُ لكَ (سودةَ بنتَ زمْعَةَ)، أرملةَ السكرانِ بنِ عمروٍ الأنصاريِّ...



وراحتْ (خولةُ) تقصُّ على الرسولِ ﷺ قصةَ هذه المرأةِ المجاهدةِ ، التي هاجرتْ مع زوجِها إلى الحبشةِ ، وهناكَ مرضَ زوجُها ولقيَ حتفَهُ ، وتركَها بلا عائلٍ ، ولو عادتْ إلى أهلِها لأرغموها على العودةِ إلى الكفرِ والوثنيةِ .

كانتِ السيدةُ (سودةُ بنتُ زمعةَ) امرأةً طاعنةً في العمرِ، حيثُ تجاوزَ عمرُها الخامسةَ والخمسينَ ، ولم تكنْ ذاتَ مالٍ أو جمالٍ ، وبرغمِ ذلكَ فقدْ وافقَ الرسولُ ﷺ على الزواجِ بها .

وانطلقتْ (خولةُ بنتُ حكيمٍ) حتى أتتْ بيتَ (سودةَ بنتِ زمعةَ) ، فدخلتْ عليها ، وقالتْ لها :

- ماذا أدخلَ اللهُ عليكِ من الخيرِ والبركةِ يا (سودةُ) ؟

فسألتْ سودةُ في دهشةٍ :

- ماذا لديكِ يا خولةُ ؟

فقالتْ :

- أرسلني رسولُ اللهِ ﷺ لكي أخطبَكِ له .

ولم تصدقْ (سودةُ) نفسَها ، فبعدَ أنْ أظلمتِ الدنيا في وجهِها بعدَ وفاةِ زوجِها ، وانصرافِ الناسِ عنها ، عادتْ



الحياةُ تبتسمُ لها من جديدٍ ، وتفتحُ لها ذراعيها عن آخرِهما ، لكي تسْرِي فيها الروحُ ، بارتباطِها بسيدِ البشرِ ، وخاتمِ المرسلينَ ﷺ .

وأرسلتْ (سودةُ بنتُ زمعةَ) إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ تقولُ له :

ـ أمري إليكَ يا رسولَ اللَّهِ .

فقال لها رسولُ اللَّهِ ﷺ :

ـ مُرِي رجلاً من قومِكِ يزوجُكِ .

فأمرتِ ابنَ عمِّها (حاطبَ بنَ عمروٍ) أنْ يتولَّى أمرَ زواجِها ، فزوَّجَها (حاطبُ) للنبيِّ ﷺ ، فكانتْ أولَ زوجةٍ يتزوجُها النبيُّ ﷺ بعدَ السيدة (خديجة) .

وتعجَّبَ بعضُ أهلِ مكَّةَ من هذا الزواجِ ، وقالوا غيرَ مصدِّقينَ :

ـ امرأةٌ في هذا العمرِ ، غيرُ ذاتِ مالٍ ولاجمالٍ ، يتزوجُها (محمدُ) بعدَ (خديجة بنت خويلد) سيدةِ نساءِ قريشٍ ؟

لكنَّ هذا كانَ يؤكِّدُ نبلَ أخلاقِ الرسولِ ﷺ ، فقدْ كانَ الغرضُ الأساسيُّ مِنْ هذا الزواجِ هو مواساةُ هذه الزوجة ،



وحمايتها من بطش أهلها وتعذيبهم لها ، ومكافأة لها على صبرها وتحملها للشدائد في سبيل الله .

كذلك فقد كان الرسول ﷺ يطمع أن يكون هذا الزواج سببا في محو الحقد والضغينة من قلوب قومها ، فقد كانوا يظهرون العداء الشديد للرسول ﷺ والإسلام ، ولاشك أن هذا الموقف قد أثر فيهم تأثيرا شديدا ، فقد أعجبوا بهذا الصنيع الرائع من النبي ﷺ ، وبالفعل خفف قومها من عداوتهم وبغضهم للإسلام ، ودخل منهم عدد كبير في دين الله .

ومنذ دخلت (سودة بنت زمعة) بيت النبي ﷺ ، وهي تدرك أن مهمتها هي إرضاء رسول الله ﷺ ، والقيام بتدبير شئونه ، والتخفيف من آلامه وهمومه مثلما كانت تفعل (خديجة بنت خويلد رضي الله عنها) .

وارتفعت (سودة بنت زمعة) بفضل زواجها من الرسول ﷺ إلى مرتبة عالية ، حيث صارت أما للمؤمنين ، بعد أن كانت مجرد زوجة لرجل منهم .

ولم تكن تريد أكثر من ذلك ، بل يكفيها هذا النسب وهذه الصلة من رسول الله ﷺ ، ولذلك فقد قالت للرسول ﷺ :



- يا رسولَ اللّه ، ما بى على الأزواجِ مِن حرجٍ ، ولكنى أحبُ أنْ يبعثنى اللّهُ يومَ القيامة زوجًا لك .

ورأتْ (سَودةُ بنتُ زمعةَ) ، وقد كبرتْ سنُها ، أنها لا تستطيعُ أنْ تقدمَ للنبى ﷺ أكثرَ مِن رعايتِه والقيامِ على خدمتِه ، فطلبتْ من النبى ﷺ أنْ يبقَى معها على أنْ تهبَ يومَها لأمِ المؤمنين (عائشة بنت أبى بكرٍ) وقالت :

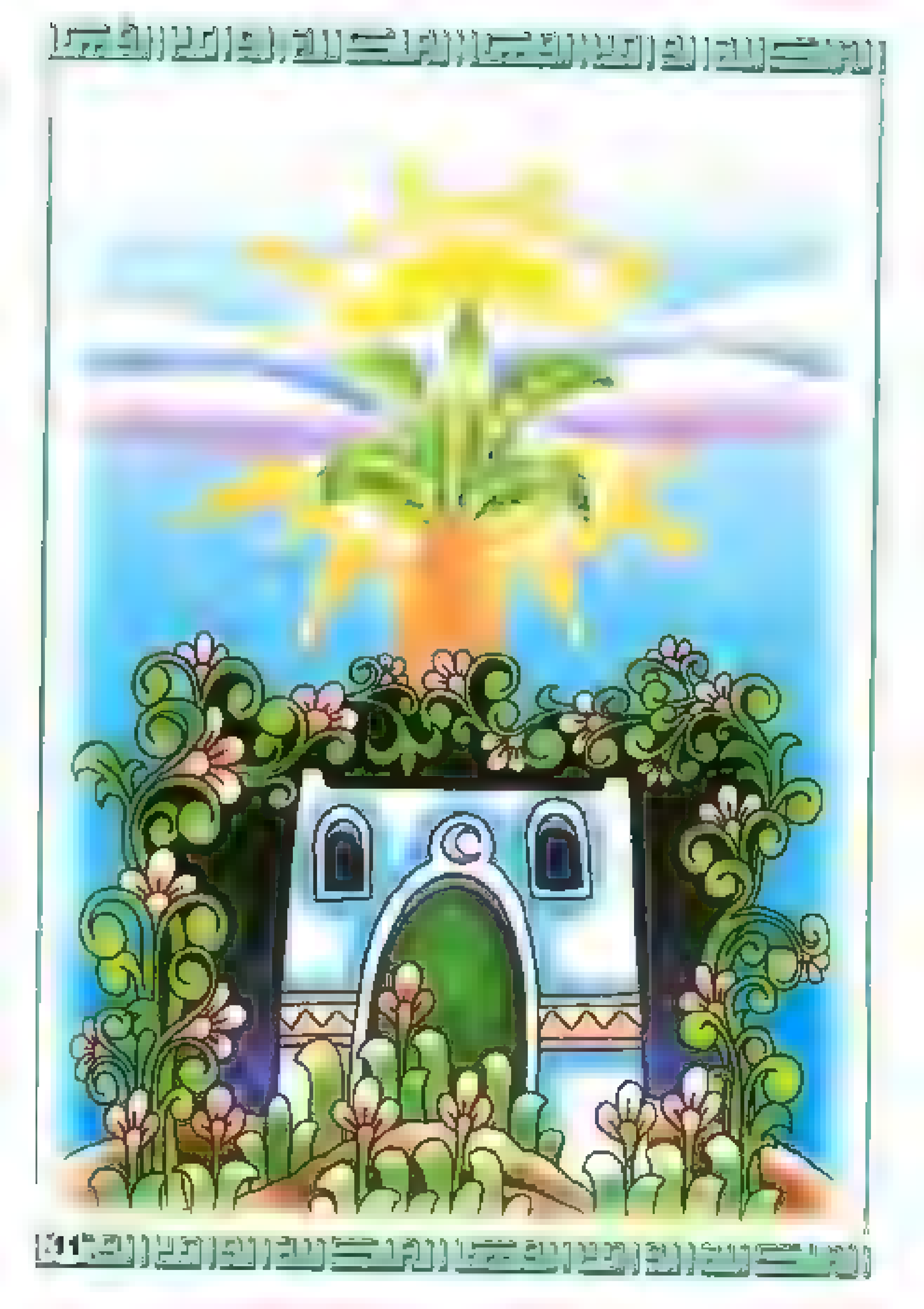
- يا رسولَ اللّه ، لقدْ جعلتُ يومِى وليلَتى لـ (عائشة) .

ففعلَ الرسولُ ﷺ ذلكَ ، وتفرغتْ (سودةُ بنتُ زمعةَ) لإرضاءِ رسولِ اللّه ﷺ ، وحرصَتْ على التقربُ إلى اللّهِ ، فراحتْ تجتهدُ فى العبادةِ ، وتفتخرُ بأنها ترتبطُ برسولِ اللّه ﷺ بالرباط المقدس .

كانتْ (سودةُ بنتُ زمعةَ) مرحةً خفيفةَ الظلِّ ، فكانتْ سببًا فى التخفيفِ عنْ رسولِ اللّه ﷺ بما كانتْ تملكهُ من هذه الروحِ السمحةِ ، وكانتْ تُضحكهُ ضحكًا بريئًا .

فقدْ صلَّتْ خلفَ النبىِّ ﷺ ذاتَ ليلةٍ ، فأطالَ النبىُّ ﷺ فى الركوعِ ، فلما انتهى مِنْ صلاتِه ، قالتْ لهُ :

- يارسولَ اللّهِ ، صليتُ خلفكَ الليلةَ ، فركعْتَ بى فأطلتَ ،



حتى أمسكتُ بأنفي مخافة أنْ يقطرَ الدمُ .

وكانتْ (سودةُ بنتُ زمعة) طيبةَ القلبِ إلى درجةٍ كبيرة ، فكانتْ تتصرَّفُ بعفويةٍ شديدةٍ ، دونَ أنْ تقصدَ شيئاً أو تتعمدَهُ .

فبعدَ أنْ انتهتْ غزوةُ بدرٍ ، وجاءَ المسلمونَ بالأسرى ، ورأتْ (سودةُ) (سُهيلَ بنَ عمرٍو) ـ وهُوَ أخُو زوجِها السابقِ ـ في الأسْرِ ، ورأتْ يديهِ مربوطةً إلى عُنُقِهِ بحبلٍ ، فلمْ تملكْ نفسَها أنْ توجِّهَ إليهِ الكلامَ قائلةً :

ـ يا أبا يزيدٍ ، أسلمتُمْ أنفسَكُمْ وأعطيتُمْ بأيديكُمْ ، ألا مُتُّمْ كراماً !

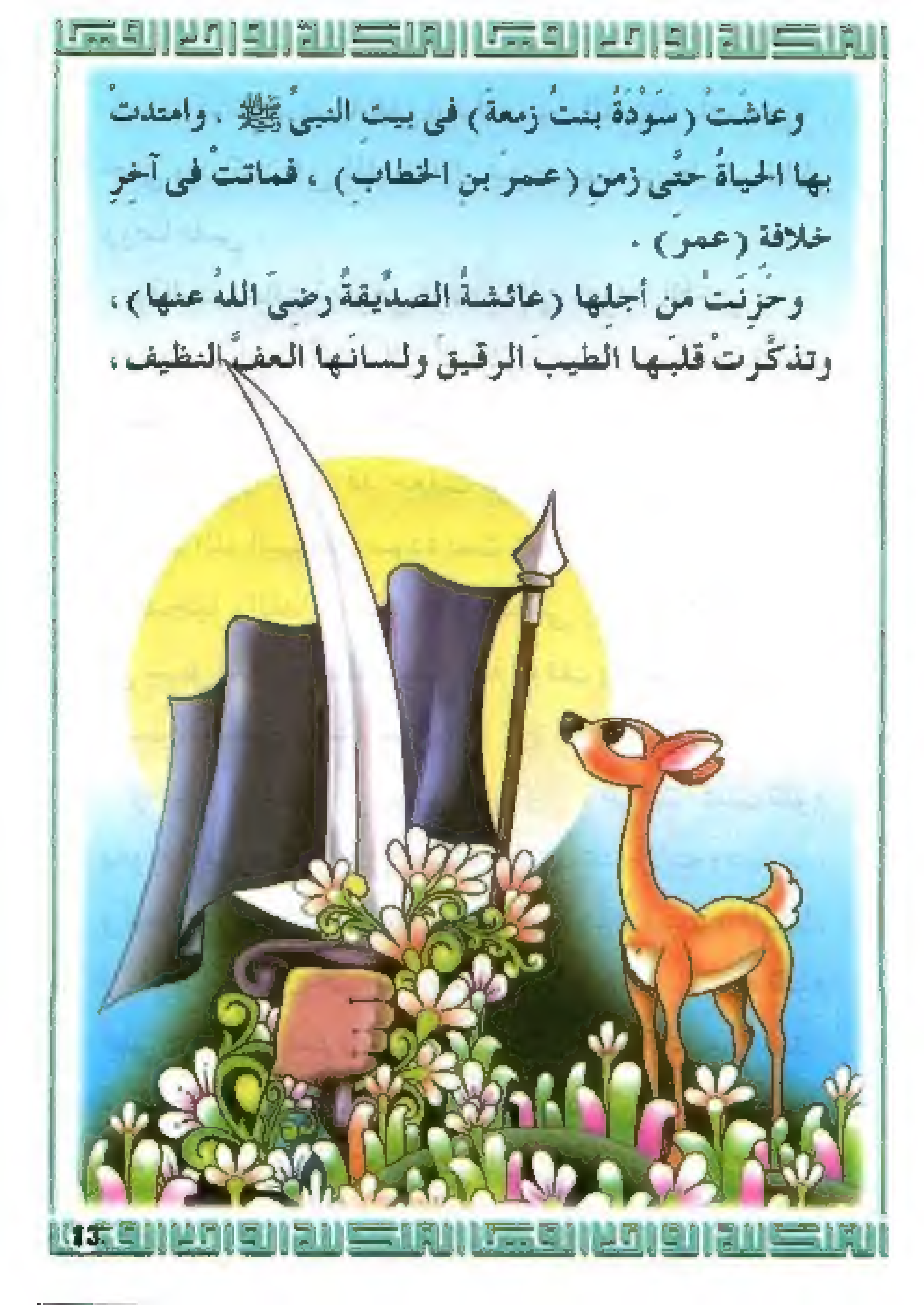
وسمعَها الرسولُ ﷺ فناداها منَ البيتِ ، وقالَ لها :

ـ أعلى اللهِ (عزَّ وجلَّ) وعلى رسولهِ تحرِّضينَ ؟

فأجابتْ قائلةً :

ـ يا رسولَ اللهِ ، والذي بعثَكَ بالحقِّ ، ما ملكتُ نفسي حينَ رأيتُ أبا يزيدٍ ، مجموعةً يداهُ إلى عُنُقِهِ ، أنْ قُلْتُ ما قُلْتُ !

وكانَ الرسولُ ﷺ يعلَمُ فيها هذهِ الصفةَ ، ولذلكَ فقدْ سكتَ عنها ولمْ يُلحَّ في عتابِها



وعاشتْ (سودةُ بنتُ زمعةَ) فى بيتِ النبيِّ ﷺ ، وامتدتْ بها الحياةُ حتّى زمنِ (عمرَ بنِ الخطابِ) ، فماتتْ فى آخرِ خلافةِ (عمرَ) .

وحَزِنَتْ من أجلِها (عائشةُ الصدِّيقةُ رضِيَ اللهُ عنها) ، وتذكَّرتْ قلبَها الطيبَ الرقيقَ ولسانَها العفَّ النظيفَ ،

كما تذكرت حرصها على إرضاء رسول الله ﷺ بأي صورة ، حتى وإن كان في ذلك تنازل عن حقها عن طيب خاطر ورضا نفس .

وقالت (عائشة) وهي تودعها إلى مثواها الأخير :

ـ ما من امرأة أحب إلي أن أكون معها من (سودة بنت زمعة) لما كبرت ، قالت :

ـ يا رسول الله ، قد جعلت يومي منك لـ (عائشة) !

رحم الله السيدة (سودة بنت زمعة) ، التي كانت مثالا للتضحية والفداء ، فقد هاجرت هي وزوجها إلى الحبشة في سبيل الله ، وتحملت بشجاعة الموقف وأثبتت أنها جديرة بحب المسلمين وثقة رسول الله ﷺ .

وعندما انتقلت إلى بيت النبي ﷺ ، عرفت كيف تقوم بدورها كزوجة ترعى زوجها وتخفف عنه آلامه وهمومه ، وكمؤمنة صادقة الإيمان لا يعرف الشك سبيلا إليها ، وكأم للمسلمين حرصت على أن تبقى مجرد زوجة تقوم على خدمة الرسول ﷺ ، ولا تتطلع إلى أكثر من ذلك ، فقد كانت تدرك أن الارتباط ـ مجرد الارتباط ـ برسول الله ﷺ تشريف ما بعده تشريف .



ولذلك فقد حرصت على هذه الصلة التي تربطها بالنبي ﷺ ، وقالت :

- يا رسول الله ، والله ما بي على الأزواج من حرص ، ولكني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجا لك .

وحقق الله لها ما تريد ، فقد بقيت زوجة للرسول ﷺ ، وصارت أما لكل المؤمنين في كل زمان ومكان ، إذا ذكرت دعوا لها بالخير وتذكروا مواقفها النبيلة ودورها المهم في حياة رسول الله ﷺ .

قال تعالى :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ . [الأحزاب : ٦]

(تمت)

الكتاب القادم

عائشة بنت أبي بكر (١)

أحب زوجات النبي إلى قلبه

رقم الإيداع : ٢٠٠١/٤٦٢٨